معاهد بورستل للشباب الخارج على القانون

بقلم

الدكتور حسن الساعاتى

مدرس الاجتماع المنتدب بكلية الآداب

يجتاز الشبان فى بدء شبابهم عقبة من أكبر العقبات التى تصادفهم فى حياتهم ، لأن مرحلة الشباب من أعقد مراحل النمو الإنسانى إذ هى محفوفة بشتى المتاعب الجسمية والعقلية التى تؤثر فى الحس وتنعكس على النفس ، فتجعلها قلقة مضطربة لا تستقر على حال ولا يهدأ لها بال . أما الجسم فيطرأ عليه تغير كبير إذ هو ينمو بسرعة وتبدأ بعض الغدد نشاطها فتفرز إفرازات لها أثر فعال فى التكوين والنمو لا سيما فى نشاط الأعضاء الجنسية الأولية وفى ظهور العلامات الجنسية الثانوية كشعر العارضين فى الولد واستدارة الثديين فى البنت . ومن هذه الدلالات ما يبدو تدريجياً فلا يكاد يشعر به الشاب ومنها ما يظهر فجأة فيحدث فى النفس صدمة تسبب فى كثير من الأحيان ضيق الشاب وانقباضه وانهماكه فى تفكير عميق لا يؤدى إلى نتيجة إذ ليس له من غرض سوى العزلة الفكرية والابتعاد عن حقائق الحياة التى تبدو لكثير من الشبان غريبة مرة . وأما العقل فيبطئ فى نموه ويبلو الذكاء ضعيفاً غير متوقد وكأنما علته غمامة من البلادة جعلته يخبو ويظلم فيحار الشاب فى أمره وتزداد حيرة الكبار الذين يتعهدونه بالتربية والتعليم فى البيت وفى المدرسة وفى مكان عمله . أما فى البيت فهو غريب الأطوار متناقض الأعمال ، يجنح إلى العزلة ويبتعد عن والديه ويتخذ مكاناً قصياً عن إخوته الذين يكبرونه فى السن وربما تغيرت أخلاقه فجأة وبسرعة فيصير مشاكساً كثير الحركة ثرثاراً لا يبطل لسانه عن نسج الأكاذيب والادعاءات الباطلة . إذا لعب مع إخوته أو أبناء جيرانه كان شديد الاعتداد بنفسه قاسياً فى معاملته فظاً فى طباعه يسن لهم القوانين التى تصادف هوى فى نفسه ثم هو لا يلبث أن يخرج عليها ويعدل فيها أو يغيرها لأنها لم تعد ترضى نفسه المتقلبة التى لا تثبت على حال فى هذه المرحلة التى تبدأ

بطور البلوغ وتبلغ أشدها بين الخامسة عشرة والسادسة عشرة وربما تستمر بعد هذه السن . يشكو الوالدان من ابنهما الشاب مر الشكوى وكثيراً ما يقفون فى طريقه يأمرونه أن يفعل هذا ويكف عن ذاك فيثيرون فيه نزعة إلى التحدى والثورة ، فتزداد شكواهم ويضطرم غضبهم وينقمون عليه فينقدونه ويكيلون له اللوم وكأنهم فى ذلك يتحدونه وكأنما صغرت سنهم وتساوت رؤوسهم . هذه بالطبع طريقة عقيمة سيئة العواقب لا يلجأ إليها إلا والدان جهلا الأمور وحقائقها ، لم يعرفا أن ولدهما يعانى فى هذه المرحلة آلاماً نفسية تنغص عليه عيشه وتكدر خاطره وأنه يحتاج إلى نصح العارف وإرشاد الخبير . هذا ما يحدث لكثير من الشبان فى هذه البيوت الجاهلة ، أما فى المدرسة فنتاجهم العقلى يضعف ويصبح من الصعب قيادتهم ومن العسير إرشادهم لأنهم لا يستطيعون الانتباه ولا يمكنهم حصر الفكر فى موضوع معين مدة طويلة كما أنهم يميلون جداً إلى الخروج على قوانين المدرسة التى كثيراً ما كانوا يولونها كل تقدير واحترام فيشكل الأمر على مدرسهم الذى يجهل حالهم فيشكو منهم ويعاقبهم بشتى أنواع العقاب الذى يستطيعه دون جدوى ، إلا أنهم يزدادون ثورة وجموحاً . وأخيراً فى مكان عملهم حيث يقل إنتاج الشبان فى هذه السن كما يصبح عملهم غير متقن وذلك لإهمال يلاحقهم فيؤثر فى عملهم ويغضب أصحاب العمل منهم فيوقعون عليهم غرامات متباينة أو يقللون من أجورهم أو يطردونهم إن تكرر إهمالهم . وهكذا يظن هؤلاء الشباب أن العالم يضطهدهم وأن الناس ضدهم وأن ليس هناك من يفهمهم . فبعضهم كثيراً ما يهرب من المنزل ولا يواظب على الذهاب إلى المدرسة . وإن كان فى عمل تركه وبحث عن غيره ليتركه سريعاً وهكذا . وهم بأفعالهم هذه يبعدون عن الصواب ويتخبطون فى الحياة يسيرون فيها على غير هدى فيقتربون رويداً من الهاوية وسرعان ما يستهويهم إخوان السوء فيفسدونهم ويجدون منهم آذاناً صاغية لوسوستهم وغوايتهم فيقدمون على السرقة أو التشرد وهكذا يكسرون القانون الاجتماعى فيقودهم عملهم هذا إلى مراكز البوليس ثم إلى المحكمة فالتأديب ويقصد به فى عرف كثير من الناس « العقاب » .

كان هؤلاء الشبان الجانحون الخارجون على القانون وأمثالهم حتى عام ١٩٠٨ يرسلو إلى السجون فى انجلترا لا فرق بينهم وبين غيرهم من المجرمين من الرجال الكثيرى السوابق المتأصلين فى الإجرام . فكانوا يدخلون هذه السجون ويمكثون بها مدة تختلف فى الطول والقصر فيقضون ما وقع عليهم من عقاب وحرمان ثم يخرجون

منها بقلوب لا تعرف الرحمة لأنها لم تصادفها فى الناس ، فيعيثون فى الأرض فساداً وكأنهم طبعوا على حب الشر واستنزال الضر على الناس . وندر أن يكون من بينهم العاقل المعتبر الذى يخرج من السجن ثابتاً يبحث عن عمل ليكتسب منه مالا حلالا . وهو إن فعل ذلك وجد أن وصمة السجن التى يحملها تقف حجر عثرة فى طريقه فتخيف الناس منه وتجعلهم يوصدون باب العمل فى وجهه . وإن عطف عليه أحدهم ومال إليه وأعطاه عملا فما عطفه وميله إلا طريقة مصطنعة لاستغلال حالته كى ينقده أجراً حقيراً وربما دفعه الاستغلال وسوء المعاملة إلى ترك العمل وتفضيل التشرد على حياة ذل واستعباد . ذلك ما كان يحدث فى انجلترا قبل خمسة وثلاثين عاماً خلت وهو لا يزال يحدث ويتكرر فى البلاد المتأخرة فى الشئون الاجتماعية وهى للأسف ليست بقليلة حتى فى هذا الزمان الذى نحارب فيه الاستعباد والاستغلال والطغيان .

وكانت بريطانيا أول بلد تفطن إلى هذا الضرر الذى يلحق بأبنائها فى هذه السن وهم لا يزالون فى بدء شبابهم ؛ فهب للإصلاح فى نواح عدة رجال ونساء كثيرون وكان أول من فكر فى هذه المشكلة الاجتماعية الخطيرة السر إيفلن رجلز برايز Sir EvelinRugeles-Brise الذى كان يرأس مصلحة السجو فى أوائل القرن الحالى وكان معروفاً بحبه للخير وعطفه على الشبان الذين كان سوء الحظ يقودهم إلى السجون . فقام على رأس نفر من المصلحين الذين شاركوه فى شعوره النبيل وأخذوا يطوفون بالسجون لبحث هذه المشكلة ، حتى إذا ما أتموا بحثهم قدموا تقريراً إلى البرلمان الإنجليزى الذى قرر بأغلبية ساحقة عام ١٩٠٨ ألا يرسل الشبان بين السادسة عشرة والحادية والعشرين إلى السجون — وقد زيدت السن بعد ذلك إلى الثالثة والعشرين — وأن تقام لهم بنايات خاصة فى أماكن معينة تسمى معاهد التدريب لأنها تشبه تماماً فى إدارتها أرقى المدارس الانجليزية وينص القانون على أن الشاب يرسل هناك كى يتدرب على عمل يفيده فيتعلم حرفة تنفعه فى حياته إذا ما ترك المعهد . ومدة الإقامة بهذه المعاهد تتراوح بين سنة وثلاث سنوات يقضيها الشاب فى تعلم حرفة كصناعة الأحذية أو البناء أو النجارة أو الحدادة أو فلح الأرض أو الطبخ أو غسل الملابس وتنظيفها أو الخبازة أو تربية الماشية إلى آخر هذا النوع من الصناعات النافعة — وقد خلع على معاهد التدريب هذه اسم « بورستل » وهو اسم قرية قريبة من بلدة رتشستر بمقاطعة كنت فى شرق لندن . إذ كان هناك فى

قرية « بورستل » سجن للمجرمين قديم حول فى عام ١٩٠٨ إلى معهد تدريب بعد أن جرت عليه يد الإصلاح فجعلته معهداً جميلا بدلا من سجن مقبض مظلم . جربت الطريقة الجديدة فى هذا المعهد لأول مرة فنجحت نجاحاً دفع أولى الأمر إلى إنشاء معاهد أخرى على منواله حتى أصبح هناك عشرة معاهد للشبان ومعهد واحد للشابات كلها دور علم ومعاهد خبرة ومعرفة أقيمت على مبدأ حديث سام وهو « إصلاح الشاب الجانح » لا عقابه وحرمانه ولفظه من المجتمع وهذا مبدأ رحمة نادى به الانجليزيان « هوارد » و« روملى » منذ قرن من الزمان وتبعهما فى حركتهما الإصلاحية هذه مصلحون كثيرون وصلوا بكفاحهم المتواصل إلى تحقيق تلك المبادئ السامية التى تنادى بأن الجانح إنسان له جسم يشعر ونفس تحس وتتألم وأن له حقوقاً كما عليه واجبات . ومن أهم ما ينص به قانون ١٩٠٨ تأسيس جمعية بورستل بلندن لمساعدة خريجى معاهد بورستل أى معاهد التدريب بعد انقضاء مدة تدريبهم ، فيبحثون لهم بواسطة مندوبين لهم فى البلاد عن عمل مناسب ويساعدونهم بالمال حتى يصبح الشاب عضواً نافعاً عاملا فى المجتمع .

وتنقسم هذه المعاهد من حيث نظامها إلى مفتوحة غير مسورة ومقفلة أى مسورة وجميعها مصنفة حسب أعمار الشبان ونوع الحرفة التى يريدون أن يتعلموها . فهناك أربعة معاهد لمن تتراوح سنهم بين السادسة عشرة والثامنة عشرة وكلها مفتوحة ومعهد خامس مقفل لشبان هذه السن الذين لا يناسبهم المعهد المفتوح . وهناك معهد مقفل لمن تتراوح سنهم بين الثامنة عشرة والحادية والعشرين ومعهد آخر لمن تخطى ذلك إلى الثالثة والعشرين . وللشابات معهد كبير مقفل . ويتمتع شبان المعاهد المفتوحة بامتيازات كثيرة أهمها الحرية المطلقة إذ المعهد غير مسور ومفتوحة أبواب حجراته وللشبان فيه مطلق الحرية فى الخروج والدخول كما أنه يمكنهم استعمال دراجات خاصة بهم يشتريها لهم المعهد فيذهبون إلى أماكن بعيدة عن معهدهم لشراء ما يلزمهم ، كما أن لهم الحق فى دخول أى سينما مجاناً . والفضل فى ذلك راجع إلى جهود مديرى هذه المعاهد وإلى حسن سير الشبان خارج معهدهم الأمر الذى يحبب فيهم الأهالى الذين يعطفون عليهم . أما المعاهد المقفلة أى المسورة فهى من الاسم توضح معناها والغرض منها . فأفرادها لا يتمتعون بما يتمتع به إخوانهم فى المعاهد الأخرى ، فهم يخرجون فى أوقات معينة فى أيام معينة بصحبة ضابط من المعهد . وتحول المحكمة الشبان الجانحين إلى معهد فلتم Feltham حيث يقضون فيه

زهاء شهر يكونون فيه تحت المراقبة . ونظام هذا المعهد شديد فلا يصرح لهم بالتدخين أو الخروج من المعهد مطلقاً . هناك يزورهم مندوب وزارة الداخلية ويقرأ تقرير الأخصائى الاجتماعى ثم يستشير مدير المعهد فى نوع الحرفة التى يريدها الشاب كما أنه يقف على سلوكه وطبيعته من تقرير ذوى الشأن الذين عرفوه وعاملوه داخل هذا المعهد . بعد كل هذا البحث والاستشارة يأمر المندوب بأن يحول الشاب إلى المعهد الذى يصلح له . فبعضهم يذهب إلى معاهد مقفلة والبعض الآخر وهم كثير يحولون إلى معاهد مفتوحة . وكل شاب جانح فى هذه المعاهد يطلقون عليه اسم « ولد » وإن كان قد تخطى العشرين وكذلك كل شابة تخاطب باسم « بنت » والأولاد يلبسون « بنطلونات » قصيرة والبنات يلبسن « مرايل » وللأولاد بذلة مخصوصة مكونة من جاكتة وبنطلون قصير لونهما بنى إذا كان الولد جديداً فى المعهد ويطلق عليه اسم « ولد فى ثياب بنية » a boy in brown ويقوم بكنس الأرض ومسحها وتنظيف المعهد مدة تتراوح فى الطول والقصر حسب سلوكه واستقامته على أنها لا تقل عن شهرين ولا تزيد أحياناً عن أربعة أشهر يرقى الولد بعدها إلى الثياب الزرقاء ويطلق عليه اسم a boy in blue أى « ولد فى ثياب زرقاء » وفى كثير من المعاهد يقسمونهم إلى شعب لكل شعبة عريفها ثم إلى فرق لكل فرقة قائدها وينتخب القواد رئيساً لهم فيصبح القائد الأعلى أو رئيس أولاد المعهد . وكل معهد ينقسم إلى منزلين أو أكثر ولكل منزل رئيس House master يكون للأولاد بمثابة الوالد الحانى ويساعده فى عمله وكيل له ثم ضباط كثيرون كضباط المدرسة تماماً لا يلبسون غير زيهم الأهلى العادى وفى كل منزل سيدة تسمى ميترن Matron ووظيفتها الإشراف على ملابس الأولاد ونظافتهم فهى منهم بمنزلة الأم الرحيمة . وكل منزل يكون أسرة مستقلة لها تقاليدها ونظمها الداخلية الخاصة . ويشرف على المعهد جميعه مدير يعاونه فى كثير من الأحيان وكيل ويشترط فى كل من يعين بهذه المعاهد سواء أكان مديراً أم ضابطاً أن تكون له دراية بأحوال الشباب ونفسيتهم . كنت أقيم بكل معهد من هذه المعاهد بضع أيام فأتحدث إلى المدير ورؤساء المنازل وضباطها ثم أندمج مع الأولاد وأشاركهم فى لعبهم ومرحهم وفى بعض الأحيان فى طعامهم حتى أكسب ثقتهم فيتحدثون إلى بصراحة . أما الرؤساء فوجدتهم رجالا مؤمنين بمبادئ المصلحين السامية متحمسين لخدمة الشباب وكثيراً ما وجدت فيهم العارف الخبير الذى يقوم بتجارب متنوعة ينفع بها هؤلاء

الأولاد وأولاداً أخرى تأتى من بعدهم . وليس هناك أعقد من تجارب يقوم بها العالم لا على معادن وعناصر بل على بشر فى سن ثورتهم ومدة جموحهم على أن نجاح تجاربهم هو أكبر مشجع ومكافىء لهم على ما يبذلونه من نفس ونفيس . أما الأولاد أنفسهم فوجدتهم سعداء بهذه الأنظمة الجديدة يتعاونون فى كثير من الأحيان مع رؤسائهم ويحبونهم ويعتدون بمنازلهم ورؤسائها إلى درجة تظهر فى مبارياتهم وعملهم فى حرفهم المختلفة . فأولاد كل منزل يريدون أن يبزوا أولاد المنزل الآخر ويفوقوهم . وقد حدث أثناء مقامى بأحد المعاهد أن حاول ولدان الهرب فذهب قواد منزلهما يبحثون عنهما حتى عثروا عليهما وقادوهما إلى المعهد وبينما هم ينتظرون المثول بين يدى المدير سمعت أحد القواد يقول لهما «لقد أخزيتمانا أمام المنزلين الآخرين . عدا بأنكما لن تعودا إليها أبدا» . لقد رأيت هؤلاء الأولاد يلعبون ويمرحون لا فرق بينهم وبين غيرهم من الشبان المستقيمين ورأيتهم يلتهمون طعامهم الشهى وهم يرسلون النكتة تلو النكتة ورأيتهم فى المصانع المختلفة يعملون بجد ونشاط وفى هدوء تحت إشراف مدربين معينين بالمعاهد لتعليم الأولاد مختلف الحرف . ويتقاضى كل ولد قدراً زهيداً من المال كل أسبوع يتراوح بين ما يعادل قرشاً ونصفاً وخمسة قروش حسب جودة عمله ومدة بقائه فى المعهد . وكثيراً ما كنت أرى رئيس المنزل يعطى النقود لبعض قواد منزله ليوزعها على بقية الأولاد فكانوا يقومون بذلك العمل فى دقة وأمانة .

وبعد أن يقضى الولد مدة يراها صالحة مجلس المعهد يصرح للولد أن يترك المعهد نهائياً وهناعيبدأ النصف الآخر من هذا النظام الحكيم فى العمل وأعنى بالنصف الآخر « جمعية بورستل » إذ يتصل مندوب منها بالولد قبيل خروجه فيمده بملابس جديدة وبعض المال وتذكرة سفر إلى المكان الذى يريد الولد الذهاب إليه حيث يقابله هناك تابع لهذه الجمعية مقيم فى نفس البلدة فيصحب الولد إلى المصانع والمحال المختلفة باحثاً له عن عمل حتى يجد له ما يناسبه ويريحه ؛ وبعد ذلك يتركه على أن يزوره مرة كل شهر ثم كل شهرين حتى يمضى عام كامل يكون الولد فيه تحت المراقبة فإن كان مستقيماً ترك وشأنه إلا إن أراد المساعدة فإن الجمعية تمده بها . أما إن سلك طريقاً أعوج وسقط فى الهاوية فإن الجمعية ترسل فى طلبه وتحوله على معهد مقفل ليبدأ تدريبه من جديد ولكن فى قليل من الحرية لكى يتعظ ويعتبر . وقل من الأولاد من يعود لطيشه ورعونته ولهذا فان معاهد التدريب تعتبر من أنجع الوسائل لمعالجة مشكلة جناح الشباب .

حسن الساعاتى